

## من نكبات الحزبية في تاريخنا

للأستاذ سعيد الأفغاني

فأضع تحت أبصارهم عبرة مائة لا تنسى أبداً عسى أن يذكروها كلما حاول من سبقهم أن يجعلوا منهم وقوداً لفتنة تفسرهما الأهواء والنزوات ، أو كلما نزع بهم في المستقبل نزع يحيد بهم عن خير أمتهم إلى إرضاء أهوائهم ، فيذكروا هول الخلاف الذي صلبنا جسيمه في صدر دولتنا وما تزال ممراته الأليمه في كل نفس خيرة تدبر عبر التاريخ .

إني لا أخوض سياسة ، وإنما أطلع هذه النفوس المعصومة على عواقب أول خلاف سياسي في الإسلام وما جر من ويلات متتابعات ، ناقلاً إياه من كتاب انتهت قريبا من عمله . وأنا أحب أن يجعل الناس بالهم أبداً — كما قرأوا التاريخ — إلى عبره وتجاربه فيأخذوا من كل شيء أحسنه ، ويربأوا بأنفسهم وأمتهم أن يناسروا في تجربة ثبت ضررها وفسادها وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمناه فيها دماء عشرات الألوف من أبطالنا :

لقد كان أمر المسلمين الأولين محبباً من العجب : امتلأت نفوسهم بكل ما يحبهم ربهم من خير في الإسلام ، فأحسنوا فهمه وأحسنوا الاستجابة لرسوله نساء ورجالاً فوطدوا أركانه في الجزيرة ، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه واندفع هؤلاء المسلمون الأخيار في أقطار الأرض يريدون إعلاء كلمة الحق وإنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان : من شرور الظلم والجهل واستهان الإنسان ؛ فحرر الله على أيديهم بلداناً وشعوباً كثيرة ، فأشركوا الناس كافة في سمادتهم وعدلهم وأمتهم . ومن عرف أنهم كانوا قبل عشرين عاماً فقط يأكل بعضهم بعضاً ويمدو قويمهم على ضيفهم ، قبائل متعادية ، وطوائف ينزوا بعضها بعضاً ... عرف نعمة الله عليهم وعلى الإنسانية بهذا التوحيد الذي ألف بين قلوب ما كانت لتتألف ؛ وأدرك المعجزة التي أتى بها الإسلام في توحيدهم وخلقهم خلقاً جديداً جعل من سفكة الدماء أنبياء رحمة ورسول هداية وإسماء للبشر .

لقد أتوا — وكلتهم واحدة — بالمعجائب في حروب التحرير والفتح ثم البناء والتنظيم ، وكان منهم كل الخير لأنفسهم ولغيرهم فلما سبت الدنيا خيراتها وكنوزها بين أيديهم ، وقادم ما كان جديداً من روعة الدين وعهد الرسول وصاحبيه ، وكان أمر الشورى المعلوم ، وكرمت في هذه الإمبراطورية الراسمة المناصب

ليس هذا خوفاً في السياسة ، فأنا امرؤ ساء ظننه في محترفيها جميعاً ؛ وعلى أتى منذ خمسة وعشرين عاماً مولع بتتبع أحداثها في الأقطار العربية وخاصة في الشام ومصر ، شغف بعشرة الخبيرين بمقايها . لم أخضها يوماً من الأيام كفاحاً وجهماً لوجه لا أنفة منها ، ولكن أنفة من حال الخائضين فيها . وإذا سألتني عن السر في تضييع الفرص على الشعوب العربية وحرمانها من خير لم تقصر في السهر عليه والجهاد له ، أجبتك : « إنه في داء واحد في الأقطار جميعاً هو : أخلاق القادة ! »

ارجع بصرك في أحداث الثلاثين سنة الأخيرة ، فستجد أن قطراً من الأقطار لم ين عن جهاد صادق سنة من هذه السنين ، ولم يبخل على قضيته بنفس ولا نفيس . لقد بذل في سبيل ربه ووطنه دماؤه وأمواله بسخاء كان مضرب الأمثال ، ولكن المتصددين للقيادة بهم داء الكلب والتناحر وصغار النفس والتعلق بالسفاسف ، لا يخافون الله في أمة طوحوا بها في المهالك من أجل تمتع بمنصب أو جاه أو مال ، أو تلذذ بقهر منافس أو معارض ... غير خجلين من أن يمدوا أيديهم ضارعين إلى أجنبي وصلوا إلى زعامتهم بمجاهرة أمتهم بمدائه ، وهو يترص بهم يوماً كهذا اليوم تقودهم فيه ضعة نفوسهم إليه صاغرين ، فيضرب بهم مستقبل أمتهم ويضيع عليها ثمرات نضالها الطويل ، ثم ينبذهم من بعد ذلك إليها نبذ النواة ، فإما أن يكون الله كشف عن بصيرة الأمة فجعلتهم نكالا ، وإما أن يستقلوا ( طينها ) ثانية فيستأنفوا زمامة من جديد .

ولست أطمع في صلاح نفوس الساسة اليوم ، فالله وحده هو الذي يحيي الأرض بعد موتها ، ولكنني قوى الأمل في الأجيال الناشئة التي لم تشهد أيام الإذعان لسيطرة الاحتلال ، ولا طابنت لمب صيبانه بلحي كبارنا وساستنا ، وإنما شهدت كفاح هذه القوى الشريفة فنشأت على الإباء والنضال .

إني لأغتم فرصة احتفال ( الرسالة ) بالعام المحجري الجديد ،

فسأل ربه - فيما سأل - أن يجنبهم إضراره ، إذ علم أن هذه القوى الهائلة المتراسة التي عمرها إيمان لم تعرف الأرض له مثيلاً كقضية بفتح الأرض كلها لدعوة الخير والحق ، لا تقف لها قوة إلا أن تنشق هي على نفسها فرووا عنه أنه قال : سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة :

سألت ربي ألا يهلك أمي بالسنة ( القحط ) فأعطانيها .

وسألت ربي ألا يهلك أمي بالفرق فأعطانيها .

وسألت ربي ألا يجعل بأسهم بينهم فنعمنيها .<sup>(١)</sup>

ليقضى الله أسراً كان مفعولاً .

« . »

انقضت الخلافة والخلاف بخيرها وشرها ، ولم يبق منها إلا هذا التاريخ بين أيدينا ، لواء بالعبر : فلنتعظ به ، ولنحذر أي تفرقة بيننا بكل ما نستطيع ، ولنتكن تلك السماء الزاهية ضياءاً حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة ، فلا نعيدين فاجعتها جذعة ، ولنهرب من كل خلاف وتفرقة هرب السليم من الأجرى فإيهما بيدآن صغيرين لا يؤبه لهما ثم يمظان حتى يلتها الأخضر واليابس .

وإن أعجب شيء فلا أولئك الذين مازالوا يجتمعون ويتفرقون متجادلين في هؤلاء الصحابة الأخيار : أيهم المؤمن وأيهم الكافر؟ أيهم على الحق فيحمد وأيهم على الباطل فيذم؟ ويتقربون إلى الله في لمن رجال : ما منهم أحد إلا وله السوابق الحسان في نصرة الإسلام وإبلاء كلمة الله والدفاع عن رسوله ، وما فيهم إلا من بذل ماله ودمه ودم أهله للخير العام ، تخلفوا لنا بفضل إخلاصهم هذه البلاد الواحدة على ترابي أطرافها . إنها وحدة جامعة عجزت ضربات الدهر وسطوات الدول ثلاثة عشر قرناً عن أن تنال منها ما يقضى عليها ويمحوها ؛ فما زال العراق إذا هبط أقصى المغرب في مراكش لا يحس بغربة عن أهل ولا وطن . أستغفر الله ، بل ما زال المسلم الصيني من أقصى الشرق إذا هبط ساحل بحر الظلمات تلقته القلوب بالبشر والترحاب لقد جمعهم الله بمحمد وصحبه على كلمة حق واحدة قلن يفرق أحد ما جمع الله بمحمد وصحبه .

والولايات ... بدأت نوازح الطموح تتحرك في نفوس هؤلاء الأبرار فيكتبونها رهبة من الله . لكن عناصر الشر والنش والفساد من أهل النحل البائدة والأمم المذلوبة كانت أيقظ من أن تغفل عنهم وهي الخبيرة بمدخل الشر ومخارجه ، فما زالوا يفتلون لأولئك الطيبين في الذروة والقارب حتى استجاب بعضهم لأهواء نفوسهم من حيث لا يشعرون ، ودب ديب الخلاف بينهم واشتغل بعض ببعض ، ووقفت الفتوح أيلم على رضى الله عنه حتى خيف على المسلمين من فولد الروم .

أرأيت ما يفعل الخلاف في الدولة القوية الفتية المتماسكة

المتينة الأساس ؟ .

إنه يطعم فيها حتى المغلوب المشرف على الدمار ، دع ما أرى في سبيله من دماء غالية بدأت بالخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رحمه الله ، ثم أرفدت بدماء عشرات الألوف . وهذا ( يوم الجمل ) وهو يوم واحد أسفر عن خمسة عشر ألف قتيل على أقل تقدير في بضعة ساعات ، فلا تسل عما بعده من ( يوم النهروان ) و ( يوم صفيرة ) وغيرها من تلك الأيام التي أعملنا فيها سلاحنا في أنفسنا فأوقمنا الوهي في دولتنا والتفرقة في صفوفنا والمداوة في قلوبنا ... وكان الله قد غسل هذه القلوب وجمع تلك الصفوف . ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل ويوم صفين ... اجتمعت على الخير فسارت إلى قوى الشر شرقاً وغرباً لأكلت الدنيا بقوتها ، ولأحالت العالم حينئذ جنة يتحدث بنعيمها وسادة أهلها الركبان . لكن الله الذي أيد هذه الأمة أول أمرها أضى أن يكون بأسها بينها ، فامتلاً تاريخنا بالحروب الداخلية وتحول عن مجراه السعيد الذي كان جرى فيه خير الإنسانية عامة ؛ قضاء من قضاء الله لاحيلة فيه . ولست أدري ما يكون حال دنيانا الآن لو أن العرب لم يفسدها الخلاف والتطاحن ولم تنزل بأسها بينها ؟ ولو ذهب باحث يحصى هذه الدماء المهرقة في سبيل الخلاف منذ قتل عثمان حتى اليوم ، في الشرق والمغرب والأندلس ... إذاً لأفرهته هذه الملايين منها ، ملايين لو بذلت في سبيل الحق لكان تاريخ العالم كله على غير ما نعرف ، ولكننا أهل الحضارة حتى الآن وإلى الأبد لا يلم بشمسنا أفول .

وقد خاف رسول الله صلى عليه وسلم على أمته آثار الخلاف ،

(١) صحيح مسلم ٧ - ١٧١ (الاستانة سنة ١٣٣٣ هـ) وانظر

مسند أحمد ١ - ٢٥٥ .

ما يشغلنا عن هذا الباطل ، وفي مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق ... فلنقابلهما صفاً واحداً وأمة واحدة كما بدأنا الله ، ولننبذ عصور الظلام وآثار الجهل وضيق الأفق بمخلفاتها جميعاً .

إن ربنا واحد وكتابتنا واحد ورسولنا واحد ، فلنعد أمة كما أراد الله لنا ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وفرقة . فالظروف عصبية ونحن على مفترق الطرق ، وإننا لمحايطون بالأعداء داخلًا وخارجًا ، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا ؛ فلا نعينهم على أنفسنا ، ولا نضمن في أيديهم السلاح الذي يقتلنا ويجعلنا لهم طعمة سائفة .

\*\*\*

ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا لم يجعل للفرقة إلينا سبيلاً ، ولا جعل بأسنا بيننا ، وليت هذه السابقة التي هوت على الأمة الواحدة أن يقا تل بعضها بعضاً لم تكن قط .  
فليت الظمينة في يتها وليتك (عكس) لم ترتحل (١)  
ثم ليتنا بمد هذا كله ننتبر بما في الخلاف من ضرر بالغ في كبير أمرنا وصغيره (٢) !

سعيد الأرفغاني

(١) عكر لاسم الجبل الذي ركبته السيدة عائشة على رأس جموعها في أول فتنة قسمت العرب في الاسلام صفين متعادين .  
(٢) الفصل الأخير (عبارة الحوادث) من كتابنا (عائشة والسياسة) وسيطع قريباً إن شاء الله .

لست بسبيل تمديد الآثار المشهورة لأولئك الأخيار الذين هم موضوع الخلاف كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة ... ، فأصغر أعمالهم عند الله يمحو كل ما يذكركم خصومهم من أخطاء ، وقد ذهبوا إلى خالقهم الذي أرضوه بأعمالهم ورضى عنهم ، وسجل رضاه هذا في قرآنه الكريم يتلى ما بقى على الأرض إنسان .

فلنمحصهم جميعاً بحجة واحدة ، ولنستغفر لهم ولأنفسنا ، ولنذكرهم بكل خير جزاء ما خلفوا لنا من وحدة قوية ، ودولة مثالية بنوها بجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، جهاداً أرخصوا فيه مهجهم وضحوا بأعز ما يملكون ؛ ولنطرح عن موافقتنا مخلفات عصور الانحطاط والشعوبيات ، ولنقتد بهؤلاء الأخيار أنفسهم حين يعرض بعض لذكر بعض ، فقد نزع الله ما في صدورهم من غل وعادوا إخواناً متحابين كما أمرهم الله أن يكونوا .

وإن الله عز وجل لم يتعبد أحداً بشتم صحابي ولا لمنه ، بل عظم من شأنهم وغفر لهم ما أخطأوا قبل أن يخطئوا ، ولولا ما لكان العرب اليوم في وثنية أو جاهلية ؛ فما هذا جزاء من أنقذنا به من الضلال والفرقة وخلف لنا ما كاسميداً وماضياً مجيداً وتاريخاً حافلاً بكل ما يرفع الرأس ويخلد أحسن الذكر وأطيب الثناء ...

\*\*\*

فرقت السياسات قديماً أمر المسلمين وشقت شملهم ، ثم عززها أهل الكيد والفس بشفهم حتى جعلوها تتفلغل في الأديان والمقائد ، وصار الدين الواحد أدياناً والأمة الواحدة طوائف شتى وما الأمر كله بالذي يستدعي بعض ذلك ، فلنأخذ بالتوسعة والتسامح ، ولكل رأيه في السياسة وفهمه للتاريخ فلا يضيقن أحد بفهم أخيه ، ولا نجملن خلاف الرأي في السياسات الماضية (والحاضرة) والحزبيات البائدة (والحاضرة) مفرقة وحدتنا وصادعاً شملنا ونمخداً نارنا ، ولا نجملن هذه الأحقاد والمعادوات تتوارث إلى يوم الدين .

إن الأمم من حولنا كالجياح على القصاص ، فلن يجدينا في موقفنا اليوم ذلك الجسد ولا تلك الفرقة ، بخوصة أنفسنا

لم يبق في إدارة الرسالة

إلا نسخ محدودة

من كتاب:

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

فيادر إلى طلب نسختك من دار الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة وبثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد